

أبو نؤاس شاعر الخمرة والتجديد

هو الحسنُ بنُ هانئ بن الصباح، وأبو نؤاس هي كنيئته، وهو أحدُ أهمّ شعراءِ العصرِ العباسيِّ، تاريخ ولادته غير معروف، ويقال أنه ولد سنة ١٤١ هجرية أو ١٤٥ هجرية.

حياته الأدبية

بدأ أبو نؤاس بمجالسة أهل العلم جنباً إلى جنب مع عمله في البصرة، وكان ممّن تردّد على مجالسهم الراوية عمرو بن العلاء، والذي تعلّم منه اللُغة، وضروب العلم، ومن ثمّ بدأ بمخالطة المُجان في ذلك العصر، مثل: والبة بن الحباب، وخلف الأحمر، ومطيع بن إياس، فسار على نهجهم في التهتُّك، والمُجون، كما أنه درسَ عنهم الثُّراثَ العربيَّ، والفراسيَّ، وقيلَ إنّه درسَ في البصرة القرآن، والحديث، وإنّه قضى ما يقاربُ السنة في الصحراء يتعلّم من البدو قواعد اللُغة الصحيحة،

وفاته

تُوفِّي أبو نؤاس سنة مئة وتسعة وتسعين للهجرة عن عُمر يناهزُ أربعة وخمسين عاماً كما وردَ في أغلب المصادر التاريخية.

التجديد في شعر أبي نؤاس:

شاء أبو نؤاس، شأن بشار بن برد، أن يتخذ التجديد مذهباً و حركة واضحة المعالم لشعره، ولما كان ذلك المذهب مخالفاً لما ألفه سواد الشعراء السابقين، ولا سيما المقلدين منهم، فقد كان أبو نؤاس، نظير بشار مجدداً، إلا أن ثمة تباين بين الشعاعرين اللذين يعدان بحق زعيمة التجديد في العهد العباسي.

فبينما كان بشار مجدداً بعامل اندفاع نفسي، وملاءمة بينه وبين نزعات عصره، اتخذ أبو نؤاس التجديد مبدءاً واعياً، جلي المعالم والأهداف، يجري على سننه ويدافع عنه، ويعمل على هدم ما هو مخالف له.

وبين الشعاعرين تشابه أيضاً من الناحية التقليدية، وقد اضطررا إلى اصطناع لأساليب من سبقهما وبعض معانيهم إرضاء لذوي السلطان وتقرباً منهم للحصول على صلاتهم. زد على ذلك أن الثقافة العربية التي نشأ عليها الشعاعران قد أثرت في عقليتهما فمالتا بهما إلى التقليد أحياناً عن غير وعي.

ماهي العوامل التي أسهمت في آلية التجديد والتطور في شعر أبي نواس ؟
كان أبو نواس مدفوعا إلى التجديد و التطور بحكم ما اجتمع له من العوامل الخارجية
والنفسية:

١- ففي الأوضاع الاجتماعية، كان لتقشي المجون والخلاعة الأثر الكبير على
نفسية أبي نواس المندفعة اندفاعا طبيعيا وجارفا إلى الخلاعة والمجون.

٢- وفي السياسة احتدم الصراع بين العرب والأعاجم ولا سيما الفرس؛ فكان من
ناحية المتحزبون للعروبة، ومن أخرى أنصار الشعبوية، وكان أبو نواس ذا
عرق فارسي، أو بالأحرى مغمور النسب، لا يقيدته إيثار عرقي، وليس له من
دافع على التفضيل بين حزب وحزب، إلا ما يبديه كل منهما من مغريات.

٣- في العلم والفلسفة ، افتتن أبو نواس بأنواع المذاهب والآراء المختلفة التي لم
يقبل بها العرب الأقدمون.

٤- وفي الدين ساهمت جرأة البعض على الخوض في مسائل كبيرة وحساسة،
على خلق متنفس كبير لشاعر الخمرة في هذه الناحية.

وعلى الإجمال ، فقد وُجد أبو نواس في بيئة توافق نزعاته الطبيعية أشد الموافقة،
وكان بوسع أبي نواس -لو شاء- أن يجري على مثل ما ألفه كثير من الشعراء الذين
سبقوه، فيكون مجددا في الحياة مقلدا في الشعر.

إلا أن طبعه الصريح، ونفسه الصابية إلى الحرية، قد انصرفا به بعيدا عن ذلك
التناقض، فنهج خطة حديثة لا تكتفي بصوغ النماذج الجميلة في ميدان التجديد بل
تسعى في الدفاع عنه وإبراز مزاياه وامتداحها، ومهاجمة الشعر القديم والحياة العربية
السالفة، وتتناولهما بالتهكم المر.

مظاهر التجديد في شعر ابو نواس

في ما يلي أبرز و أشهر الأغراض الشعرية التي شملتها مظاهر التجديد في شعر ابو نواس:

١- الهجاء:

من الظاهر أن أبا نواس لم يكن من الشعراء المطبوعين على الهجاء؛ فلم يكن له، من فطرته ، تلك النقمة الطبيعية على الجنس البشري، التي تلازم أغلب الهجائين المطبوعين فلا تدعهم يرتاحون إلا إلى كشف النقاب على العيوب وتناولها بالنقد والتلب.

ولم يكن غرامه بالخمرة من جهة أخرى ليفسح لخياله مجال العبث بالصور المشوهة المضحكة التي تتخذها فئة أخرى من الهجائين عمادا لأدبها.

ومع ذلك فقد كان أبو نواس يعمد إلى الهجاء أحيانا، فيأتي به إما حزبيا دفاعيا ينشر فيه نزعة له سياسية أو عقيدة أدبية، ويكافح ما ينافيهما من نزعات وعقائد. وهو كثيرا ما يوجه ذلك الشعر إلى العرب عموما ، ويحارب بنوع خاص عقلية الأعراب القدماء. وهو تارة يطعن في الأسر المالكة وذات النفوذ، أو يعرض بالقبائل العربية، وتارة ينحى على عقلية الأعراب الأقدمين أبناء البادية، فيفضح ما فيها من سخف وذلة، وما في حياتهم من جفاء وخشونة.

ففي الصنف الأول، وهو الذي يتألف من القصائد السياسية، يتجلى ميله الفارسي وقلة اعتداده بالقبائل العربية.

وفي الصنف الثاني، وهو الذي يستهل به عادة قصائده الخمرية، يجهر بشغفه الجم بالحياة الجديدة الواقعية.

ثم هناك **هجاؤه الانتقامي** الذي يثار فيه لنفسه ممن لا يقدرون منزلته الشعرية على نحو ما يقدرها هو، وأخيرا **هجاؤه المزحي** الذي كان يداعب به أصدقاءه وندماءه، أو يعارض به منافسيه وهو وإن لم ينطو على نقمة عميقة، فإنه مع ذلك حاد ومؤلم.

وعلى الإجمال ، فإن مظاهر التجديد في فن الهجاء عند أبي نواس شملت :

- ١- المجاهرة بازدراء العرب والعقلية العربية.
- ٢- والدعاء إلى التمتع والتوغل في الحياة الحديثة الواقعية اللاهية.
- ٣- وعدم الخشية من مدح الأعاجم ولا سيما الفرس منهم.

ومن أمثلة الهجاء عند أبي نواس:

قال يهجو قبائل بني تميم:

إذا ما تميمي أتاك مفاخرا * فقل عدّ عن ذا كيف أكلك للضب
تفاخر أبناء الملوك سفاهة * وبولك يجري فوق ساقك والكعب

وقال يهجو الخصيب أمير مصر:

نفسُ الخصيب جميعه كذبُ * وحديثه لجليسه كربُ
تبكي الثياب عليه معولة * أن قد يجر ذيلها كلب

٢- الطرديات

الطرديات، أو وصف الصيد، من الأبواب الشعرية التي كانت معروفة عند العرب؛ إلا أنها حتى عهد أبي نواس لم تقم فنا مستقلا بذاته، بل كانت كالخمريات تأتي في أغلب الأحيان مدموجة في عرض قصيدة مختلفة المواضيع موجزة في الإجمال، قلما تتعدى بضعة أبيات.

وقد عُني أبو نواس عناية خاصة بهذا الباب، لأنه كان من الأمور التي يؤثرها الأمراء، وأغلبهم مولع بالصيد ومطاردة الفرائس، وكان شاعرنا يخرج بصحبتهم إليه، ويرجع وملاء حقيبته صور رائعة متنوعة ، صور الكلاب والطرائد ، وآلات الصيد، وسائر ما يستخدم ويُرى في مثل ذلك الحال.

ثم يتحفهم بقصائد في تصوير تلك الأيام اللاهية، يتناول فيها الصيد من جميع نواحيه، ويفتن في وصفه ويتمادى ما شاء، حتى يؤلف لوحات عليها من البراعة والإتقان ما

قلما اتفق لسواه . وأبو نواس يكثر في هذا الباب من الصناعة البديعية ، والاستعارات والتشابه الخيالية ، والصور المستمدة من حضارة العصر المترفة.
قال أبو نواس يصف كلبه الذي انطلق مع الصباح:

قَدَ أَغْتَدِي وَالصُّبْحُ مَشْهُورٌ قَدَ طَلَعَتْ فِيهِ النَّبَاشِيرُ

كَأَنَّهُ سَهْمٌ إِلَى غَايَةٍ أَوْ كَوَكَبٌ فِي الْأُفُقِ مَحْدُورٌ

٣- الزهديات

هو العنوان الذي ألف النقاد إطلاقه على تلك القصائد القليلة التي قالها أبو نواس في أخريات أيامه، وقد تحطمت قواه، وقعد به العجز عن تتبع الملاهي، فانكفاً على نفسه يسبر، بعين موجعة وقلب كسير، غور المعاصي التي ملأ بها حياته؛ فهاله ذلك المشهد القاتم، وأقبلت نفسه على التوبة.

زهديات أبي نواس هي من الشعر الغنائي الخالص؛ هي نغمات شجية يتراجع فيها نواح قلب صادق الألم والخوف والندم والزهد في الدنيا؛ هي على قلتها، من أجمل شعر أبي نواس، وأرقه، وأعمقه عاطفة، وأبعده تأثيراً، وأصدقه عبارة.

قال أبو نواس في قصيدته ” سبحان علام الغيوب: ”

سبحانَ علامِ الغيوبِ * عَجَباً لَتَصْرِيفِ الخُطُوبِ
تَغْدُو عَلَى قَطْفِ النُّفُوسِ * سِ وَتَجْتَنِي تَمَرَ القُلُوبِ
حتى متى ، يا نفسُ، تَعَدُ * حَرَّيْنِ بِالْأَمَلِ الكُذُوبِ
يا نَفْسُ تُوبِي قَبْلَ أَنْ * لا تَسْتَطِيعِي أَنْ تُتُوبِي
وَاسْتَغْفِرِي لِذُنُوبِكِ ال * رَحْمَنَ عَفَّارِ الذُّنُوبِ
إِنَّ الحَواذِثَ كَالرِّيا * حَ عَلَيكِ دائِمَةَ الهُبوبِ
و الموتُ شرعٌ واحدٌ ، * و الخُلُقُ مختلفو الضُّروبِ

وقال في قصيدة التوبة المشهورة:

يا ربَّ إنَّ عَظَمَتْ دُنُوبِي كَثْرَةً * فلقد عَلِمْتُ بِأَنَّ عَفْوَكَ أَعْظَمُ
إِنْ كَانَ لَا يَرْجُوكَ إِلَّا مُحْسِنٌ * فَمَنْ الَّذِي يَدْعُو وَيَرْجُو المَجْرَمُ
أَدْعُوكَ رَبِّ كَمَا أَمَرْتَ تَضَرُّعاً * فَإِذَا رَدَدْتَ يَدِّي فَمَنْ ذَا يَرْحَمُ
مَالِي إِلَيْكَ وَسِيْلَةٌ إِلَّا الرَّجَا * وَجَمِيلُ عَفْوَكَ ثُمَّ إِنِّي مُسْلِمٌ

٤- الغزل

لم يكن مزاج أبي نواس ومذهبه في الحياة اللاهية الشاردة وراء اللذة الوقتية، ليسمحاً له بالحب الصحيح الخالص، أو ليجعله يوماً من العاشقين، وهو إذا تغزل يصطنع الغزل اصطناعاً، ومع ذلك فقد يبلغ أبو نواس أحياناً، في غزله هذا إلى شيء من إجادة فنية لا تخفي ما في جيده من مخادعة في العاطفة، وتكلف باد، ورديء ساقط. قال في حبيبته جنان:

أَمُوتُ وَلَا تَدْرِي وَأَنْتَ قَتَلْتَنِي فَلَا أَنَا أَبْدِيهَا وَلَا أَنْتَ تَعْلَمُ
لِسَانِي وَقَلْبِي يَكْتُمَانِ هَوَاكُمُ وَلَكِنَّ دَمْعِي بِالْهَوَى يَتَكَلَّمُ
وَلَوْ لَمْ يَبْحِ دَمْعِي بِمَكْنُونِ حُبِّكُمْ تَكَلَّمَ جِسْمٌ بِالنُّحُولِ يُتَرَجَّمُ

ثم لأبي نواس صنفاً آخر من الغزل، يكاد يكون جديداً في الأدب العربي، وهو التشبيب بالغلما والغلمايات، والغلما جماعة من الفتيان المتخنثين، المسرفين في التطرف والتبرج، أما الغلمايات فجوار متطرفات خليعات، يتخذن المظاهر الملفقة، ويتزيين بزى الفتيان.

وقد كان أبو نواس مغرماً بتلك الظواهر فوصفها، وتغزل بهن في شعر يلائمهن خفة وسوء أدب، وإباحة، من غير تغلغل إلى العاطفة الصادقة والجمال الحق. وفي هذا يرى الأديب الناقد الدكتور يوسف بكار، أن انتشار العادات الفارسية في المجتمع العباسي ولا سيما السيئة منها، ساهم في خلق جبهة تهوى هذا النوع من

الانحراف والمجون، وشُفعت تلك الحرية بمباركة السلطان لها، فغدا إتيان المعاصي
مبررا لكون السلطان نفسه يأتيها، والناس على دين ملوكهم.
قال أبو نواس:

احمدوا الله جميعا * يا جميع المسلمين
ثم قولوا لا تملوا * ربنا ، أبق الأميننا
صير الخصيان حتى * صير التعنين ديننا
فاقتدى الناس جميعا * بأمر المؤمنيننا

وقال في غلام كان موجودا في قصر الخليفة:

أيهما الناس ارحموني	وتمشوا بي إليه
كلموه في سكون	لا تشقن عليه
كلموه اليوم يرضى	عن أسير في يديه
لو رأيتم حين يمشي	كاسرا من حاجبيه
في إزار قد لواه	ثم دلى طرفيه
قلتم: ذا الفتك حقا	ليس ما نحن عليه

٥- الخمريات

أبو نواس شاعر الخمرة بلا منازع، والخمرة عروس شعره الحقيقية، وفيها تجلت
عبقريته المجددة التي رفعته فوق السابقين واللاحقين، فكان زعيم شراب الخمرة، كما
كان زعيم القائلين فيها؛ وقد جعل لها في الأدب العربي بابا مستقلا كاملا.
ولما كان أبو نواس واقعا وأراد الكلام على الخمرة، لم يتغن في شعره هذا إلا بالواقع،
ولم يكد يعتمد فيه على غير الحس؛ فهو يتناول الخمرة كما تقع في حواسه، وإذا كان
يعبد الخمرة ويعشقها فقد تقصى الكلام عليها، ولم يدع فيها واردا ولا شاردة إلا التفت
ليها وأحاط بها وأثبتها، مما يتعلق بمنظورها ومشموها ومذاقها وتأثيرها في الحس
وفي النفس.

وخلص عميد الأدب طه حسين في تحليله لخمريات أبي نواس إلى القول : ” إن أبا نواس في شعره الخمري كان يرمي إلى غرضين: أحدهما الاعتراف بالجديد في الأدب ، والآخر الاعتراف بالجديد في الحياة. ”

قال في قصيدته المشهورة ” لا تلمني: ”

دَع عَنكَ لُومِي فَإِنَّ اللُّومَ إِغْرَاءُ * وَدَاوِنِي بِأَلْتِي كَانَتْ هِيَ الدَّاءُ
صَفْرَاءُ لَا تَنْزَلُ الْأَحْزَانُ سَاحَتَهَا * لَوْ مَسَّهَا حَجْرٌ مَسَّتَهُ سِرَّاءُ
فَلَوْ مَزَجْتَ بِهَا نُورًا لَمَازَجَهَا * حَتَّى تَوَلَّدَ أَنْوَارٌ وَأَضْوَاءُ

وقال أيضا:

ألا فاسقني خمراً، وقل لي : هيَ الخمرُ
فما العيشُ إلا سكرةٌ بعد سكرة
فَبُيْحُ بِاسْمٍ مِنْ تَهْوَى، وَدَعْنِي مِنَ الْكُنَى
وَلَا خَيْرَ فِي فَتْكِ بَدُونِ مَجَانَةٍ
وَلَا تَسْقِنِي سِرًّا إِذَا أَمَكْنَ الْجَهْرُ
فإن طال هذا عنده قصرَ الدهرُ
فلا خيرَ في اللذاتِ من دونها سترُ
وَلَا فِي مَجُونٍ لَيْسَ يَتَّبِعُهُ كَفْرُ

تلك كانت أبرز مظاهر التجديد في شعر أبي نواس ، والتي حاولنا أن نستقيها مختصرة قدر الإمكان من مصادر الأدب المعروفة، ومما لا يدع مجالاً للشك ، فقد خلف هذا الشاعر العبقرى، موروثاً شعرياً حافلاً بالمفردات اللغوية القوية والتعبير البلاغية الرصينة، وإن كان يعاب عليه مجونه وانحرافه.